

الافتباس والتضمين وحسن الابتداء والتخلص وحسن الانتهاء

أ.د.سعد التميمي

الافتباس: هو أن يُضمّن المتكلم منثورَه أو منظومه شيئاً من القرآن، أو الحديث، على وجه لا يشعر بأنه منهما، فمثاله من النثر: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى أنشد فأغرب» (إِلَّا كَلْمَحِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) (النحل 77) ونحو قول الحريري: «أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليه.» (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) يوسف 45 وكقول عبد المؤمن الأصفهاني: لا تُغْرَنَكِ من الظلِّمة كثرة الجيوش والأنصار إنما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. ومثاله من الشعر قوله:

وتغر تنضد من لؤلؤ بألباب أهل الهوى يلعبُ

إذا ما ادلهمت خطوب الهوى يكاد سنا برقه يذهب (يَكَادُ سَنَا بَرَقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) النور 43

وكقول الشاعر الآخر:

إن كنت أزمعت على هجرنا من غير ما جُرم فصبر جميل (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يوسف 18

وإن تبدلت بنا غيرنا فحسبنا الله ونعم الوكيل (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) آل مران 173

وكقول بعضهم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا

فأنا الذي أتلو لهم يا ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا (يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) الفرقان

27

ومثاله من الحديث في «النثر» قول الحريري: «شاهت الوجوه، وقبح اللع ومن يرجوه.»

وكقول الحريري أيضاً: وكتمان الفقر زهادة، و«انتظار الفرج بالصبر» عبادة.

ومثاله من الحديث في «الشعر» قول الشاعر: قال لي: إن رقيبي سيئ الخلق فداره

قلت: دعني وجهك «الجنة حُفَّتْ بالمكاره»

وكقول القائل: لا تُعَادِ الناس في أوطانهم قلما يرعى غريب الوطن

وإذا ما سُنت عيشًا بينهم (خالق الناس بخلق حسن)

التضمين: هو أن يضمّن الشاعر كلامه «شيئًا من مشهور شعر الغير» مع التنبيه عليه ٤ إن لم يكن مشهورًا لدى نقاد الشعر، وذوي اللسن؛ وبذلك يزداد شعره حُسْنًا، كقول صاحب بن عبّاد:

كأنه كان مطويًا على إحَن ولم يكن في قديم الدهر أنشدني

«إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألّفهم في المنزل الخشن»

وكقوله:

إذا ضاق صدري وخفت العدا تمثلت بيئًا بحالي يليق

"فبالله أبلغ ما أرتجي وباللّهِ أدفع ما لا أطيق"

وكقول الحريري يحكي ما قاله الغلام الذي عرضه «أبو زيد» للبيع:

على أني سأنشد عند بيعي أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فالمصراع الأخير «للعرجي» وهو محبوس، وأصله:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

حسن الابتداء أو براعة المطلع: هو أن يجعل أول الكلام رقيقًا سهلًا، واضح المعاني، مستقلًا عما بعده، مناسبًا

للمقام، بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكلية؛ لأنه أول ما يقرع السمع، وبه يعرف مما عنده. قال ابن رشيق:

إن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، وذلك مثل قول الشاعر:

المجد عُوفي إذ عُوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك السقم

وتزداد براعة المطلع حسنًا إذا دلت على المقصود بإشارة لطيفة، وتسمى براعة استهلال وهي أن يأتي الناظم

أو الناثر في ابتداء كلامه بما يدل على مقصوده منه، بالإشارة لا بالتصريح كقول «أبي محمد الخازن» مهناً

«الصاحب ابن عبّاد» بمولود:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

وقول غيره في التهنة ببناء قصر:

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام

وقول أحمد شوقي في الرثاء:

أجل وإن طال الزمان موافي أخلى يديك من الخليل الوافي

وقول آخر في الاعتذار:

لنار الهم في قلبي لهيب فغفوا أيها الملك المهيب

وقد جاء في الأخبار أن الشعر قفل وأوله مفتاحه.

التخلص: هو الخروج والانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود، برابطة تجعل المعاني آخذًا بعضها برقاب بعض، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من نسيب إلى مدح أو غيره؛ لشدة الالتئام والانسجام، كقول الشاعر:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله في الكاس

وإذا نزعت عن الغواية فليكن «الله» ذاك النزاع لا للناس

وإذا أردت مدح قوم لم تلم في مدحهم فامدح «بني العباس»

وقوله: دعت النوى بفراقهم فتشتتوا وقضى الزمان بينهم فتبددوا

وقد ينتقل مما افتتح به الكلام إلى الغرض المقصود مباشرة، بدون رابطة بينهما، ويسمى ذلك «اقتضابًا» كقول

أبي تمام: لو رأى الله أن في الشيب خيرًا جاورته الأبرار في الخلد شيئا

كل يوم تبدي صروف الليالي خلقًا من أبي سعيد غريبًا

حسن الانتهاء أو «حسن الختام»: هو أن يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى،

مشعرًا بالتمام؛ حتى تتحقق «براعة المقطع» بحسن الختام؛ إذ هو آخر ما يبقى منه في الأسماع، وربما حُفظ

من بين سائر الكلام؛ لقرب العهد به يعني أن يكون آخر الكلام مستعذبًا حسنًا؛ لتبقى لذته في الأسماع، مؤذناً

بالانتهاء، بحيث لا يبقى تشوقًا إلى ما وراءه، كقول أبي نواس:

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت فيك جدير

فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقول غيره:

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وقال ابن حجة:

عليك سلام نشره كلما بدى به يتغالى الطيب والمسك يختم